نازك الملائكة 3

الشعر والنقد

والواقع أن نازك الملائكة كانت محاصرة بوضعها النفسي وإحساسها الحاد وإيمانها بعالم (اليوتوبيا) الذي كانت تحلم به حلما كبيرا ، لذلك ظل ذلك التيار العاطفي يرتبط بها بشكل أو بآخر ، بينما كان التيار الواقعي يشق طريقه ببطء أيضا، حتى إذا طلعت علينا الشاعرة بديوانها (يغير ألوانه البحر) عام ١٩٧٨ و تلته بديوانها (للصلاة والثورة) عام ١٩٧٩، برز الاتجاه الواقعي مخلفا وراءه النزعة الرومانتيكية ومستعيضا عنه بنزعة متفائلة ، تدفع بالشاعرة إلى مناضلة الحياة ومصارعة ما قد يعود بها إلى الوراء . وربما كان مفتاح ذلك في رأينا ، هذا الإيمان الذي وصل لديها إلى ما يشبه الوجد الصوفي . فبعد أن كانت تتمزق وتتألم حيث تقول: .

الريح مزقت الشراع فأين يضرب زورقي

وتسير أمواج البحور على شبابي المغرق

رأيناها تتجه بفعل صحوتها الإيمانية إلى الله فتقول :

وإلى الشمس إلى أعلى الذرى

يمتد جذعي وغصوني

حيث ألقي في المدى وجه مليكي

وربما كان بيانها الواقعي الثوري ، قد اتضح في مقدمة ديوانها (للصلاة والثورة) حين قالت بأن الصلاة هي المعادل الموضوعي للثورة)).

وتتضح مغادرتها لعالم أحلامها ولخوفها وقلقها بقولها:

إني أتحدى أوردتي . أقتل خوفي

أصرع ضعفي

ولتحلك ظلماتي فالشوق مصابيح.

وهكذا يحل (الشوق) الذي دخل في دائرة حياتها محل (الخوف) الذي كان يطوقها من كل جانب.

إن الذي يهمنا من هذا المنعطف الذي ألمحنا إليه ، والذي يدعمه كل من ديوان (للصلاة والثورة) ومعظم قصائد (يغير ألوانه البحر) هو التماس واقعية نازك في شعرها واستمدادها موضوعات قصائدها من حياة أمتها وتعبيرها عن ذلك بصور تدل على وعي الشاعرة العميق للحياة وعيا واقعيا بعيدا عن الأحلام وعما ينسجه منه الخيال الشعري.

لقد نظرت الشاعرة إلى صورة الأمة العربية نظرة فاحصة دقيقة تدل على امتلاكها قدرة شديدة في رصد حياة الأمة . وجابهت هذه الصور المؤسية مجابهة واقعية شجاعة ، لا تخشى عتبا ولا غضبا ، واضعة نصب عينيها (المعادلة التي آثرنا اليها والتي يجسدها قولها:

متى تصلي

إنما صلاتنا انفجار

صلاتنا ستطلع النهار

تسلح العزل ، تعلي راية الثوار

صلاتنا ستشعل الإعصار

ستزرع السلاح والزنبق في القفار

تحول اليأس إلى انتصار

صلاتنا ستنقل الجدب إلى اخضرار

وعلى هذا المفهوم قام نقدها لحياتنا العربية القائمة ، فأنشأت تنشد قصائدها التي تخترق كل اعتبار سياسي واجتماعي، تضع النقاط على الحروف ، ولتقول كلمتها الصريحة دون خوف أو وجل أو مواربة أو نفاق.

وهكذا راحت نازك تحلل أوضاع أمتها المتهرئة ، في شجاعة تمتلك الصدق الفني والشعوري فتقول بعد أن تستعرض واقع أمتها السياسي والاجتماعي.

وهل نحن أعمدة من رخام

وحتى الرخام

له عصب ، ويمج المذلة ، ينهض للانتقام

وحتى القبور المهانة ترتج فيها العظام

وتغضب ، تهجم ، تجرح

وبيروت وسنى ، بأودية الحلم تسبح

وهل نحن طين .

وهل لحمنا ودمانا من الخشب المائت

فلا الجرح ورد ، ولا الموت دين

ونسكت لا نتمرد ، لا نتمزق ، لا يعترينا الجنون ؟

لقد كانت نازك قبل هذا الاتجاه ، تتذرع بالصبر والحزن ولكن ذلك ينتهي بها إلى اليأس والأسى . وحين واجهت مشاكلها العاطفية والنفسية مواجهة واقعية شجاعة اندفعت تحقق أقصى ما يعبر عن واقع الحياة الإنسانية والقومية ، وذلك منذ بدأت تفهم الحياة فهما جديدا انتهى بها إلى مواجهة تمتلك الوعي والشجاعة والصدق.

ولعل من أشد ما كان يؤلم شاعرتنا ، صورة المرأة التي عبرت عنها بقولها :(إن المرأة العربية متخلفة ، فهي تتصف بالثرثرة والتبرج وتفاهة الحديث ، وضعف الشخصية . وكان هذا كله يجرح إحساسي جرح بليغة ، ويذل كرامتي الفكرية ، فأتعذب به إلى درجة لا يتخيلها أحد)).

لكنها بعد أن اتجهت أتجاها واقعيا ، أخذت تواجه تلك الصورة مواجهة شجاعة تبتعد بها عن الألم والدموع فهي تنقد تلك الصورة نقدا تمتلك الجرأة فتقول متهكمة :

أظفارك الطوال يا سيدتي أطليها

بصبغ قرمزي لين

راقصة البجعة ميساء كأغصان الكروم الممراعة

خدودها من حمرة مبقعة

شبابها ما أروعه

وخضرها ما ابدعه

هذه هي الصورة تراعي المرأة في مجتمعنا العربي المعاصر ، وهي لا تصدق عليها نسحب على الرجل أيضا ، كما رأت نازك فهي تقول:

أغنية جديدة تنشدها نجاة

هذا المساء حفلة ساهرة وعشر راقصات

عري وخمر ، خاسر من لم يذق

الكأس تلو الكأس حتى يترنح الأفق

حتى نكون قد تخلصنا من اليهود

ان هذه المواجهة ليست موقفا رومانسيا ، تواجه به الشاعرة مظاهر التداعي التي تحيق بالأمة العربية ، وإنما تؤكد الموقف الملتزم الذي ألزمت الشاعرة نفسها به

النقد :

إذا لم تكن ريادة الشعر الحر قد انحسمت لدى الدارسين ، فيمن يجب أن تكون نازك أم السياب، فإن ريادة نقد هذا الشعر قد عقد لواؤها لنازك متمثلا بمقدمات دواوينها، وبكتابها الرائد (قضايا الشعر المعاصر) 1962 – على الخصوص . وإذا كان بديها ان كان عمل ريادي ، بحاجة إلى شجاعة صاحبه ، فإن نازك قد كان لها في نقدها قدر كاف من هذه الشجاعة ، لأن معظم ما صدر لها من آراء وأفكار ، قد صمد أمام العديد من الدراسات والنقود التي حاولت الإقلال من شأنها والغض من قيمتها .

ويتمثل جهد الشاعرة النقدي في ثلاثة أنماط هي :

١- الكتب وأهم ما يمثلها (قضيا الشعر المعاصر) 1962 والذي طبع عدة طبعات ومحاضرات في شعر علي محمود طه المهندس) الذي غيرت عنوانه في الطبعة الثانية وسمته الصومعة والشرفة الحمراء) ١٩٧٩.

اما كتابها الثالث فهو التجزيئية في المجتمع العربي 1974

ويحقق كتابها عن علي محمود طه الجانب التطبيقي في النقد في حين يمثل الكتابان الآخران ، الجانب النظري .

٢- أما النمط الثاني ، وهو المقالات فيتمثل في الكثير من المقالات التي نشرت في المجلات العربية والتي لم تضمها كتب ، وأهم المجلات التي احتوت مقالاتها تلك، الآداب البيروتية .

3- وثالث هذه الأنماط يتمثل في ما صدر لها من مقدمات في بعض دواوينها وأهمها مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) ومقدمة مجموعتها (مأساة الحياة وأغنية للإنسان) ومقدمة ديوانها (للصلاة والثورة)) .

وقيمة هذه المقدمات تتجلى في إفصاح الشاعرة عن العديد من مواقفها الفكرية والفلسفية وما يمكن أن يؤثر في إنتاجها الشعري ومنهجها النقدي .

والواقع أن كتابها النقدي (قضايا الشعر المعاصر) يعد أهم وثائقها النقدية ، وخاصة ما يتصل منه بالجانب العروضي . إذ استطاعت الشاعرة أن تستنبط العديد من القواعد العروضية التي لا تتعارض مع عروض الخليل بن أحمد ، وإنما تقوم عليه ، وعلى ما امتلكته الشاعرة من ذوق رفيع وحسن دقيق ، وفهم عميق خاص لمسألة الأوزان..

وقد عالجت الشاعرة الناقدة في القسم الأول من الكتاب ، العديد من القضايا المهمة الأخرى ، في مقدمتها الظروف والعوامل التي أدت إلى ظهور الشعر الحر . وقد اجتهدت الناقدة أن تسمي من هذه العوامل ، إلحاح الظروف الاجتماعية والنفسية ، ونفور الشاعر الحديث من النموذج الجاهز للقصيدة العربية وإيثار المضمون في العصر الحديث.

وتحدثت الشاعرة عن الشعر الحر بوصفه العروضى ، فبحثت عروض الشعر الحر من حيث الأسلوب والتفعيلات ، وفي بحوره و تشكيلاته وأنواع أوزانه ، وموقف الشاعر الحديث

من كل ذلك . كما تحدثت عن هذا الشعر الجديد بوصف أثره النفسي في الشعراء وفي جمهور القراء ، وأشارت إلى بعض الأخطاء العروضية التي تعرض لها الشعر الحر.

وحضت البنت بالعناية ، إذ تحدثت عن مكانه من العروض العربي ، وأشارت إلى قصيدة النثر وناقشتها في ظل اللغة والنقد الأدبي .

أما القسم الثاني من الكتاب فقد بحثت فيه هيكل القصيدة الحرة وجعلت لها ثلاثة أصناف هي ، الهيكل المسطح والهيكل الهرمي والهيكل الذهبي.

وبحثت أساليب التكرار في الشعر وفي دلالاته المختلفة .

ومن القضايا المهمة التي أثارتها في هذا القسم الثاني من الكتاب ، هي الصلة الحميمة بين الشعر وبين المجتمع ، ثم صلة هذا الشعر الحر بالموت كما ورد لدى الشاعر الحديث:-

ولم تهمل الناقدة الرائدة ، العديد من العيوب التي تعرض لها نقد هذا الشعر في أوساط نقاده، وأكدت بصورة خاصة على المسؤولية اللغوية التي يجب أن يضطلع بها الناقد العربي الحديث .

والواقع أن النقد العروضي لهذا الشعر كما تصورته نازك الملائكة قد تأتي من (غيرتها الحقيقية على الشعر الحر وأصوله التراثية معا، والالتزام بالمتابعة لحمايته من الانفلات والانحراف)).

وليس هذا فحسب ، فقد كان من الأسباب التي دفعت الشاعرة الناقدة إلى هذا النقد العروضي ، هو إحساسها الدقيق بما تمتلكه الأوزان العربية وقوافيها من قيم جمالية تكشف عنها (العلاقة بين موسيقى الشعر وبين سائر العناصر الفنية من صياغة ومضمون)

وقد رأت الشاعرة أن علي محمود طه قد أمتلك قدرات فذة في تمثل هذه القيم الجمالية . وقد أظهرت في رصدها لهذه المسألة الجمالية المتأتية عن النقد العروضي ، أنها تمتلك حسا موسيقيا مرهفا ، وخبرة تأتت لها من ممارساتها لنظم هذا الشعر وفهمها الدقيق العروض الشعر العربي

ولم يكن حرص الشاعرة على الموروث الفني المتأتي من توفير العنصر الموسيقي في البحور . هو السبب في دعوتها إلى الحفاظ عليه وحسب ، بل كان لذوقها المرهف أثره في دعوتها إلى الاحتفاظ بالقافية عنصرا أساسيا في تحقيق الإيقاع . علما أنها لم تكن تعتد بالقافية في بداية دعوتها للشعر الحر .

ولقد عنيت نازك في نقدها الشعر الحر بعنصر اللغة عناية فائقة، (ومصدر عنايتها نظرتها الجمالية الخاصة لفن الشعر بخاصة ، فالأدب عندها يبقي ظاهرة لغوية قبل كل شيء ، والشكل لديها مقدم على المضمون)) .

وقد حدا بها ذلك إلى تتبع الأخطاء اللغوية التي يقع بها الشعراء الناشئون على الخصوص ، ودعت في مقالاتها وأبحاثها ، إلى وجوب حرص الشاعر على اللغة العربية وعلى صفائها ونقائها ، تحقيقا لجمالية الشكل في القصيدة ، واعتداد بالموروث اللغوي الذي حفظ للأمة العربية تراثها الأدبي الخالد ، ورفضت الاستخدامات العامية التي لجأ اليها العديد من الشعراء .

وقد امتلكت نازك في نقدها اللغوي هذا ، حسا جماليا دقيقا ، فقد نظرت إلى اللغة نظرة عميقة مؤداها ، أن اللفظة المفردة لا قيمة لها ، إلا إذا أدت دورها في النسيج العام للجملة المركبة ، ليكون لها أثر في النسيج التعبيري للقصيدة. المنام

وبذلك تكون نازك قد حققت للبلاغة وظيفتها الجمالية داخل العمل الشعري. وأطالت الكلام في موضوع التكرار وجعلت له أصنافا هي ، التكرار البياني والتكرار اللاشعوري و تكرار التنظيم وتكرار التقسيم.

لقد تكللت جهود نازك في دعوتها إلى الشعر الحر بتحقيق بعض الظواهر التي تتصل بهذا الشعر وتقعيده . من ذلك ابتداعها للعديد من المصطلحات ، كمصطلحات العروض والقافية مثل (الأشطر السائبة والشعر الحر وشعر الشطرين) ومصطلحات هيكل القصيدة مثل (المسطح والهرمي والذهني) وصفات الهيكل الجيد ، مثل (المتماسك والصلابة والكفاءة والتعادل).

وكذلك ابتداعها لبعض المصطلحات البلاغية التي سبق أن أشرنا إلى بعضها في الصفحات السابقة من مثل التكرار وأنواعه .

ومع أن نازك قد أحاطت إحاطة شاملة بمعظم ماله صلة بالشعر الحر، إلا أن من الغريب حقا أنها لم تول (الصورة الشعرية) عنايتها الكافية ، كما فعلت في بحثها عن الموسيقى واللغة ودورها في جمالية الأداء الشعري . علما أن الصورة في القصيدة الحرة هي أهم عناصرها المكونة لها ، إذ عليها تقوم الوحدة العضوية التي تعد من القضايا الرئيسة في مكونات القصيدة الحديثة .

ومع أن الشاعرة قد أثارت موضوع الصورة في بحثها عن (على محمود طه) كما أنها أشارت إلى بعض الشعراء الذين وفروا الصورة الجيدة في شعرهم ، كنزار قباني والسياب ومحمود حسن إسماعيل ، إلا أن ذلك قد جاء سريعا بعيدا عن العمق . .

ولابد من الإشادة بجهود الشاعرة في تحقيق ظواهر فنية في الشعر الحر من مثل . القصة الشعرية والرمز، وتوظيف أسلوب الحكاية الشعبية ، وتوظيف التراث العربي الإسلامي".

وأخيرا لابد من الإشارة والإشادة بما حققته نازك في مجال التأليف والنقد – القصصي والمسرحي ولعل في قصصها المخطوطة (الشمس التي وراء القمة) و(رحلة في الأبعاد) و(إلى حيث النخيل والموسيقى) وغيرها مما سنراه في مجموعتها القصصية الأولى الشمس التي وراء القمة) ما يكشف عن أبعاد تلك الصورة ... كما أن في نقدها الروائي محاور أساسية تشكل قاعدة المنهج في كل نقد... مثل (التوطئة) و(الموضوع) و(الحبكة) و(دراسة الشخصيات) و(دلالة الرموز) و(البناء الفني) و (المآخذ) في حين كانت المفردات منهجها في النقد المسرحي ترتكز على ما يأتي (الزمن) و(الشكل) و(البناء) (ودراسة الشخصيات) و (فلسفة المؤلف) .

وفي هذا ما يدل على القدرة الشمولية التي لا تقف عند حدود معينة من الفن الشعري والنقد الأدبي الذي أضطلعت بمسؤوليتهما (الشاعرة الناقدة وحسب ، وهي قدرة تحققت لها من روافد لا تمتلك الحدود ، وهذا هو الشأن في نازك التي تعد قمة من قممنا الأدبية.